مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

أوراق نماء (١)

سياسة الدين المخبـــأ:

كيف فشل الإسلاميون السوريون في حرب الأفكار؟

أحمد أبازيد

بدأت الثورة السورية كاحتجاجات شعبية ضمن المجتمعات المحلية ضد السلطة بحكم القهر المتراكم منذ أربعين عامًا سبقت لحظة اشتعال شرارة الثورة في مدينة درعا ١٨ آذار ٢٠١١م، بالتوازي مع ثورات محلية في ريف دمشق وبانياس ومناطق متعددة لم تلبث أن امتدت أفقيًّا لتشمل النسبة الأكبر من المناطق السورية، خاصة "الأطراف" خارج المدن الكبرى، ولم تحتج هذه الانتفاضة الشعبية إلى أيديولوجيا سياسية أو جهادية تتجاوز حضور الدين كمكوّن هويّاتي واجتماعي ناجز يتم الانطلاق منه بعفوية ودون شعور بالثنائية ما بينه وما بين الانتماء الوطني والمحلي، أو ما بينه وبين المطالبة بدولة حريات كمقابل أوضح للاستبداد، دون أن يكون هذا الدين الأمّي (نسبة للأمّة) والجامع لمختلف الحواضن الحاملة للثورة محل نقاش أو إثبات أو تنافس، كما جرى في مرحلة تحوّل الدين إلى موضع الصراع داخل هذه الحواضن نفسها قبل أن يكون ضد النظام.

جرى هذا طبعًا مع "أدلجة" الحراك الثوري، و"أقلمة" الصراع السوري، ويشعر البعض بضرورة تحميل "الإسلاميين" مسؤولية هذا التحويل، خاصة السلفيين منهم، مع إغفال العوامل الخارجية وفي مقدمتها دور نظام الأسد في الإصرار على إثبات طائفية الصراع معه منذ البداية، على مستوى سلوكه العملي وتحالفاته الداخلية والإقليمية، وما هو أهمّ منه – وإن كان أقلّ سلطة – دور المؤسسة الدينية "المدينية" التي ساندت برموزها ومواقفها العامة نظام الأسد في قمعه الوحشي للثوار السوريين، ما أعاد الدين إلى موضع التنافس، وضرورة تأسيس خطاب "إسلامي" بديل ومقاوم، رغم أن هذه الضرورة بدت، على مستوى الإسلاميين السابقين الذين شعروا بنداء الواجب، أكثر منها على مستوى القواعد الشعبية التي لم تعر هذه المسائل الثقافوية أهمية تُذكر، بحكم أن الزخم الثوري كان قادرًا على اجتياح أي "عقبة رمزية" تقف في طريقه، وتم خلال الأشهر الأولى وبـــ "ثورة رمزية" موازية تبديل التصنيفات وموازين القيمة لا في المجتمع السوري وحده، بل في مجمل المشرق العربي، ثقافيًّا ودينيًّا وسياسيًّا.

لكن مع طغيان الخطاب السلفي الجهادي بمفرداته وإشكالاته ونقاشاته حتى على فصائل محلية ونحن في نهاية العام الرابع من هذه الثورة، هل تعامل الإسلاميون مع هذه الضرورة حقًّا؟

تمثيلات الدين التقليدية، أو: هل كان ثمة إسلاميون سوريون؟

ربما من المفيد العودة إلى ما قبل الثورة لتوضيح جذور الانقسامات الحالية ودور هذه التمثيلات التقليدية في الثورة. والنظرية التي ندافع عنها هنا هي هشاشة هذه الانقسامات بالأساس لعدم وجود تيّار إسلامي خارج المؤسسة الدينية الرسمية (المدينية)[١]، فيما عدا مجموعات محدودة انتمت للسلفية الجهادية بعد عام ٢٠٠٣م، خلال حرب العراق، سواء ممن قاتلوا في العراق أو ممن تأثروا بـــ "جهاد العراق".

فيما بعد القضاء على ثورة الثمانينات؛ تم ترسيم العلاقة ما بين الدين والسلطة، ولم يستبعد الإخوان المسلمون كمشروع وأشخاص وحسب، وإنما استُبعد "الإسلام الحركي" من الفضاء العام، وكان المسموح، لما تبقى من جماعات إسلامية تتمحور حول المشايخ، أن تقدم تديّنًا يقف عند الشعائر والأخلاق الشخصية، دون التدخل في الإشكال السياسي. يمكن أن نتكلم عن خطّ عام هنا نسميه "المدرسة الشامية"، والذي يمثل الاتجاه العام للمؤسسة الدينية كمزيج من المذهبية (الشافعية غالبًا) والأشعرية والمشرب الصوفي. كان ثمة "جيوب" سلفية في بعض المناطق لكنها لم تشكل حاضنة اجتماعية واسعة إلا في مناطق محدودة، مثل بلدة دوما، عاصمة الغوطة الشرقية في ريف دمشق، والتي تشكل الآن الحاضنة الأوسع لجيش الإسلام وقائده زهران علوش.

بقي ثمة تأثير لمدرسة الإخوان السورية قبل الثورة، كأوسع تيار إسلامي حركي عرفته سوريا، إن لم يكن الوحيد، ولكن هذا التأثير اقتصر على أدبيات تتداولها بعض العوائل ولم يتطور إلى تيار اجتماعي، وكان أن جماعة الإخوان المسلمين في الخارج قد تحوّلت إلى مجموعة من العلاقات العائلية تقدم خطابًا سياسيا أقرب لليبرالي، ولم تشكل تيارًا اجتماعيا حتى في المنافي فضلاً عن الداخل السوري، وهذا انعكس على دور جماعة الإخوان السوريين في الثورة، والذي طغى عليه البعد السياسي[٢]، وحتى حين ساهموا في الثورة المسلحة فقد اقتصر دورهم على الدعم المادي في السر وإنكار الارتباط بأي جماعة مقاتلة على العلن، ولم يعملوا على تقديم نموذج إخواني جهادي واضح لا عمليًّا عبر فصيل ما، ولا نظريًّا عبر تقديم خطاب ثوري وجهادي في بيئة خصبة وعطشى، رغم دعمهم لفصائل عديدة لا يتفق بعضها مع فكر وسياسة الجماعة، هذا على مستوى الجماعة، وإن كان تأثير المدرسة القديمة بقي حاضرًا لدى جهات قد لا يكون لها علاقة رسمية بالجماعة ولا بخطها السياسي[٣].

---

(١) لمقاربة أخرى مفيدة حول تمثيلات الدين والإسلام السياسي في سوريا، انظر:
عبد الرحمن الحاج، "الإسلام السياسي والثورة في سوريا"، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠١٢/٥/٢١م.

(٢) حول الدور السياسي لجماعة الإخوان المسلمين في الثورة السورية من وجهة نظر غربية، انظر:
أرون لوند، "الصراع من أجل التكيّف: جماعة الإخوان المسلمون في سوريا الجديدة"،كارنيغي، ٢٠١٣/٥/٧م

وكذلك:
رافاييل لوفيفر، "جماعة الإخوان المسلمين تستعد للعودة إلى سورية"، رافاييل لوفيفر، كارنيغي، ٢٠١٣/٥/١٥م.

(٣) للتوسع في دور جماعة الإخوان في العمل المسلح في الثورة السورية، رغم تغير بعض المعطيات منذ كتابة التقرير، انظر:
أحمد أبازيد، "الإخوان السوريون والدور المرتبك"، زمان الوصل، ٢٠١٤/٣/٢٨م.

بالمقابل شكلت الاعتقالات التي طالت آلاف المتهمين بدعم القاعدة أو جهاد العراق أو مجموعات جهادية داخل سوريا فيما بعد الـــ ٢٠٠٥م؛ نواة تيار سلفي جهادي حضنه ونمّاه سجن صيدنايا[٤]، مع التنويه إلى اختلاف المدارس التي انتمى إليها هؤلاء المعتقلون الذين كان بعضهم متهمًا بتوزيع منشورات للشيخ محمد بن عبدالوهاب فقط، وتشكل في هذا السجن جذور خلافات السلفيين والجهاديين التي أغرقت الثورة السورية فيما بعد، ولعله من نافل القول والمكرر التنويه بأن نسبة كبيرة من قادة الجماعات المقاتلة في سوريا كانوا معتقلين في سجن صيدنايا قبل الإفراج عنهم على دفعات خلال الـــ ٢٠١١م، وهذا يشمل جماعات سلفية محلية (بمزيج حركي/جهادي) مثل أحرار الشام وجماعات سلفية علمية مثل جيش الإسلام، وجماعات سلفية جهادية بحتة مثل جبهة النصرة وتنظيم داعش، مع ضرورة التنويه أيضًا بالاختلاف البدهي في حضور الأيديولوجيا فيما بين قيادات الجماعات والقواعد الشعبية والمتأدلجة حديثًا في معظمها.

يمكن الكلام هنا أيضًا عن "جماعة زيد" في دمشق كمثال عن "المدرسة الشامية" والتي تمثل جسرًا ما بينها ومدرسة الإخوان بطابعها الحركي، والتي كانت تتعدى قليلاً الدور الاجتماعي المرسوم من قبل السلطة، وكانت مواقف رموزها من الثورة السورية مؤثرة في بدايات الثورة السورية، وإن خفت حضورهم الإعلامي فيما بعد، مع تأثير هذه المدرسة في فصائل مهمة مثل الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام في دمشق.

فيما بعد مرحلة المظاهرات السلمية في دمشق التي شارك رموز من الجماعة في التحريض عليها، وانتقال أغلب رموزها إلى المنافي؛ خفت الحضور الإعلامي لهذه المدرسة، ولا يبدو أن المشايخ أنفسهم متابعون لتفاصيل المشهد العسكري أو الاختلافات الميدانية والأيديولوجية بين الفصائل عدا الخلافات والاشتباكات التي حدثت بينها، وكان الإدراك للدور المنسي لمؤيدي الثورة من المؤسسة الدينية التقليدية أو ما دعوناه بالمدرسة الشامية أو جماعة زيد، وقدرتهم على ملء هذا الفراغ الرمزي والشرعي؛ دافعًا نحو قيام المجلس الإسلامي السوري في أسطنبول في ١٤ نيسان ٢٠١٣م[٥].

إلا أنه تكرر في المجال الديني ما حصل من قبل في المجال العسكري. كان أهم أسباب فشل محاولات توحيد وتنظيم "الجيش الحر" ضمن المجالس العسكرية[٦] هو التناقض ما بين إصرار الضباط المنشقين على التراتبية العسكرية كأساس للقيادة من جهة، وكون الحراك المسلح قائمًا على المدنيين و"الأبطال" المحليين والميدانيين من جهة ثانية.

هذا التناقض البنيوي الذي ضاعفه تناقض في الخطاب مع إصرار المجالس العسكرية الرسمية على لغة أقلّ "إسلامية" مما يسمح به واقع الحرب، وكان لهيئة الأركان محاولة ذكية لجسر هذه الهوة باعتمادها مبدأ ثنائية القيادة للجبهات (قيادة عسكرية لضابط منشق، وقيادة ميدانية للقادة المدنيين)، إلا أن انحياز الأركان (المؤسسة العسكرية) إلى الائتلاف (المؤسسة السياسية) بعد "بيان

---

(٤) عبد الرحمن الحاج، "السلفية والسلفيون في سورية: من الإصلاح إلى الجهاد"، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠١٣/٥/٢٦، انظر:
http://studies.aljazeera.net/reports/2013/05/2013520105748485639.ht

(٥) يوتيوب، إعلان تأسيس المجلس الإسلامي السوري في إسطنبول: https://www.youtube.com/watch?v=Vn64zonByr8 .

(٦) للتوسع في نشأة الهيئات العسكرية الرسمية:
مروان قبلان، "المعارضة المسلحة في سورية وضوح الهدف وغياب الرؤية"، **مجلة سياسات عربية**، العدد ٢، (أيار/مايو ٢٠١٢): ٤١.

الـــ ١٣" ومشاكل عديدة داخلية[٧]؛ أعادت هذا التناقض من جديد وحسمته لصالح الضباط المنشقين والمؤسسات الرسمية، لا للحراك الثوري بقادته الميدانيين[٨].

لقد حرصت النخب الرسمية على استمرار شرعيتها في الكيانات المؤسسية الموازية لتمثيل حراك شعبي أضحى له ممثلون ميدانيون لم يكن معترفًا بهم ضمن هذه النخب تقليديًّا، ولكن ما حصل هو تهميش هذا الواقع الميداني وتكريس الانفصال ما بينه وبين النخب بدلاً من استدخال نخبه الصاعدة والفاعلة في الميدان ضمن الكيانات الممثلة لهذا الميدان. حصل أمر مشابه في المجلس الإسلامي السوري الذي رتب أوراقه باعتباره مجلسًا علميًّا يعتمد التراتبية والتمثيل العلمي لا الثوري، ما أدى إلى خروج الفصائل "الإسلامية" منه بعد أيام فقط من تشكيله نتيجة عدم فوز مرشّحيها بمقاعد مجلس الأمناء[٩].

وحتى اللحظة؛ بعد قرابة العام من تشكيله لم يكن للمجلس دور ظاهر أو مؤثر في أي من الخلافات الأيديولوجية والميدانية التي عصفت بالساحة الثورية، وكانت بياناته التي تتعلق بهذه الخلافات محدودة جدًا ومختصرة وشبه محايدة[١٠]، ولا عمل المجلس على بلورة خطاب إسلامي ثوري حاضن لشتات مكونات الثورة، ويمكن القول إن بعض مكونات المجلس كانت أنشط منه بمراحل في هذا المجال، مثل هيئة الشام الإسلامية[١١].

بشكل عام؛ فإنه لم يكن ثمة تيار إسلامي حركي سياسي واجتماعي في سوريا قبل الثورة، وكانت قواعد الثورة السورية وحواضنها شعبية وأقرب لتركيبة وإشكالات المجتمعات المحلية في الأطراف، حتى لو حصلت بعض التقاطعات هنا وهناك، وكما تقدم في البداية؛ فإن هذا الزخم الشعبي الهائل لم يكن يحتاج إلى أيديولوجيا غير مظلوميته وغضبه تجاه النظام كمحرّك ودافع للتضحية والشهادة.

ورغم سعة القواعد الشعبية للتمثيلات التقليدية للتيار الديني وقدرتها على أن تكون الواجهة الشرعية والرمزية للثورة المسلحة؛ فإن هذا الخطاب المطلوب بقي مخبَّأً لأهداف سياسية وبراغماتية مثل جماعة الإخوان، أو لأن نمط التدين المديني كان قد

---

(٧) "البيان رقم١ حول الائتلاف والحكومة المفترضة"، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=nQOYASLLTRA

(٨) أحمد أبازيد، "ثورة المتروكين"، منتدى العلاقات العربية والدولية، ٢٠١٤/٨/٢٧م.
http://fairforum.org/?p=2265

(٩) وجاء في بيان الانسحاب:
"وعند انعقاد المجلس الإسلاميّ السوري في تركيا مؤخَّرًا وجدنا إرادة مبيتة واكبتها تصريحات من المتحدّث الرسميّ باسم المجلس بخلوّه من الأفراد والكيانات العسكريّة ممّا يجعل التّمثيل الشرعيّ الجهاديّ والثوريّ للدّاخل السوريّ ضعيفًا وغير مؤثّر على سياسة وقرارات المجلس، وبذلنا جهدًا في حلّ هذه المشكلة، ووجدنا إصرارًا من الجهات المنظّمة على عدم إدخال علماء أي كيانٍ جهاديّ أو ثوريّ في عضويّة المجلس وأمانته العامّة إلا بصفة استشاريّة، وبالتّالي تهميش المجالس والهيئات الشرعيّة للطيف الأوسع من الكيانات الثوريّة الدّاخليّة لأجل توجُّهات سياسيّة وخلفيَّات مسبقة تفضي إلى إضعاف التّمثيل الثوريّ في المجلس".
انظر: الجبهة الإسلامية وهيئات شرعية أخرى تعلن انسحابها من المجلس الإسلامي السوري، الدرر الشامية، ٢٠١٣/٤/٢٣م.
http://eldorar.com/node/47054

(١٠) للاطلاع على بيانات وفتاوى المجلس من الموقع الرسمي، الرابط:
http://sy-sic.com/

(١١) للاطلاع على موقع هيئة الشام الإسلامية وفتاواها، الرابط:
http://islamicsham.org/

انفصل عن جذوره الحركية وعن تجربته الجهادية، ولا يقف هذا الإشكال عند المؤسسة الدينية في سوريا، بل ورثت الثورة السورية الإشكال والفراغ الذي عم الفكر الإسلامي وتنويعاته. ثمة سؤال يحضر كتناقض بدهي هنا؛ لماذا يكون—أو يصبح- كل المتطوعين غير السوريين للقتال في سوريا "سلفيين جهاديين" وليسوا من الإخوان المسلمين مثلاً رغم كونهم التيار الإسلامي الأوسع في العالم العربي؟![١٢].

لقد كان الشعب متديّنًا، كما يكرر الإسلاميون في مقابلاتهم المصورة لتبرير شرعيتهم للقيادة، ولكن ما حصل أن هذه الأرضية المتدينة والثورية والتي تحوّلت للقتال كمجتمع لا كأحزاب أو أيديولوجيات؛ كانت تحتاج خطابًا جهاديًا وإسلاميا يمثل حاضنًا رمزيًّا وفكريًّا ضد الخطابات الجهادية الوافدة وضد عدمية الراهن نفسه، وكان يمكن لأي من من تمثيلات الإسلاميين المختلفة (الإخوان المسلمون، جماعة زيد، السلفية العلمية، المثقفون الإسلاميون، المدرسة الشامية... إلخ) أن تقدم هذا الحاضن الرمزي المطلوب والغائب في ظل حرب الأفكار وزخم الطلب على الأيديولوجيا في واقع يتحوّل سريعًا، ولكن أيًّا من هذه التمثيلات التقليدية المختلفة لم تقم بمهمتها الأقرب لأساس شرعيتها (كدعوات فكرية قبل أن تكون تيارات مجتمعية أو أحزابًا سياسية)، بينما كانت السلفية الجهادية وحدها من قدمت بقاموسها الرمزي وإشكالاتها ومزايداتها وانشقاقاتها الخاصة خطابها الجهادي الخاص، الذي أصبح المشكلة العامة.

الإسلاميون الجدد، أو: التوسع الهش

توسعت الثورة السورية المسلحة جغرافيًا من مجموعات محلية حملت السلاح في قرى وبلدات صغيرة، إلى فصائل على مستوى المدن أو الجبهات (حسب التقسيم العسكري لسوريا إلى: الجبهة الشمالية والجبهة الجنوبية والجبهة الشرقية والجبهة الوسطى وجبهة الساحل)، وألوية الفاروق هي المثال الأول والأهمّ هنا، وصولاً إلى تشكيلات على مستوى "قطري". ولم تنجح فقط محاولات التنظيم العسكري المؤسسي من الضباط المنشقين في أن تشكل حاضنًا مؤسسيّاً للثورة المسلحة لخلافات على النفوذ والأشخاص أحيانًا، ولكن أيضًا لأنها لم تتمكن من تقديم خطاب إسلامي (جهادي) حاضن في فضاء أضحى أكثر إسلامية من أن يؤسس استمراره على شعارات ليبرالية عامة.

وتوسعت هذه الثورة أيديولوجيا من تشكيلات جيش حر تعتمد شعارات إسلامية تعبوية وإيمانية وتهدف للدفاع عن مناطقها وإسقاط النظام، إلى مرحلة تزايد فيها التوضيح للهوية الإسلامية لهذه التشكيلات، وإن بشكل متكلّف أحيانًا، وأضحت أهداف التشكيلات (خاصة منذ ٢٠١٣م) تتكلم أكثر فأكثر عن مشروع "الدولة الإسلامية" و"تحكيم الشريعة" كغايات لقتالها، مع نضوب مستمر في الخطاب المتعلق بالدافع المؤسس لظهور هذه التشكيلات وهو إسقاط النظام السوري (الذي أضحى العصابة النصيرية)، وتحولت الهوية الوطنية إلى محلّ إشكال يحتاج إلى تبرير مرحلي في أحسن الأحوال إن لم يكن إلى

---

(١٢) ثمة عشرات الحالات يعرفها الكاتب لشباب ينتمون تنظيميًّا إلى حركة الإخوان المسلمين لكنهم لما انتقلوا للقتال في سوريا أصبحوا سلفيين جهاديين، ببساطة كانت السلفية الجهادية وحدها من قدمت هذا الإطار النظري والعملي للقتال في سوريا لغير السوريين.

نفي، ولعل من المفيد هنا تتبع التحول إلى استخدام "الشام" مكان "سوريا" في هذا الخطاب[١٣]، ضمن الانزياح الرمزي العام الذي طرأ على خطاب الفصائل المحلية مع طغيان الخطاب السلفي عليها.

يمكن قراءة هذا التوسع بوضوح في الربع الأخير من عام ٢٠١٢م، أعلنت "جبهة ثوار سوريا" في ٤ حزيران ٢٠١٢م، كتحالف للفصائل السورية لإسقاط النظام، وكانت كتائب أحرار الشام ضمن التشكيل[١٤]، ولكن لم يلبث مشروع الجبهة أن انهار سريعًا، قبل أن يولد. في ١٢ أيلول ٢٠١٢م أعلن عن تشكيل جبهة تحرير سوريا التي أصبحت بعد عدة أشهر "جبهة تحرير سوريا الإسلامية"[١٥]، وفي ٢١ كانون أول ٢٠١٢م أعلن عن الجبهة الإسلامية السورية[١٦]، وباتحاد أربعة فصائل ضمن الجبهة الأخيرة من ضمنها النواة الأهم "كتائب أحرار الشام"[١٧] أعلن في ٢٠١٣/١/٣١م عن "حركة أحرار الشام الإسلامية"[١٨].

---

(١٣) يمكن ذكر أمثلة عديدة على هذه المفارقة الدالة، منها مثلاً أن أحد الرموز الجهادية للأفغان العرب وممن ساهم بتأسيس "حركة احرار الشام الإسلامية" هو "محمد هايا" الذي اغتاله تنظيم داعش في حلب بتاريخ ٢٣ شباط ٢٠١٤م، وكان معروفًا في الأوساط الجهادية طيلة ثلاثين عامًا بلقب "أبو خالد السوري"، أما في سوريا فكان لقبه "أبو عمير الشامي". وكانت الكلمة الترحيبية على بوابة معبر باب السلامة الحدودي مع تركيا بعد تحريره وسيطرة الجيش الحر عليه (٢٢ تموز ٢٠١٢م) هي: "أهلاً بكم في سوريا الحرة"، والتي تحولت بعد انتقاله لإدارة "الجبهة الإسلامية" في بدايات ٢٠١٤م (والتي تأسست في ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١٣موتضم تقريبًا ذات فصائل الجيش الحر التي حررت المعبر ولكن أضحت بواجهة خطابية سلفية) إلى: "أهلاً بكم في بلاد الشام". وكذلك يمكن التذكير بـــ "الجبهة الإسلامية السورية" والتي أعلنت في ٢١ كانون أول ٢٠١٢م وكانت تقوم على حركة أحرار الشام بشكل رئيس وكانت في وقتها التحالف الأكثر "سلفية" و"جهادية" في مكوناته أو الايديولوجيا المعلنة له، بينما في ٢٠١٥م قام تحالف بين فصائل "الجيش الحر" في حلب تحت اسم "الجبهة الشامية".

(١٤) يوتيوب، إعلان تشكيل جبهة ثوار سوريا: https://www.youtube.com/watch?v=HuST6w2MEGA

(١٥) أهم التشكيلات التي ضمتها جبهة تحرير سوريا الإسلامية: (ألوية صقور الشام، لواء الإسلام، لواء الحق، كتائب الفاروق، كتائب الفاروق الإسلامية، لواء التوحيد) وانظر: يوتيوب، إعلان تشكيل جبهة تحرير سوريا ، ويقرأ البيان "أحمد عيسى الشيخ" قائد ألوية صقور الشام.

(١٦) أسماء الكيانات المؤسسة للجبهة الإسلامية السورية حسب الميثاق:

١. كتائب أحرار الشام (في كافة المحافظات السورية).
٢. كتائب الإيمان المقاتلة (في محافظة دمشق وريفها).
٣. كتيبة الحمزة بن عبد المطلب (في محافظة دمشق وريفها).
٤. كتيبة صقور الإسلام (في محافظة دمشق وريفها).
٥. سرايا المهام الخاصة (في محافظة دمشق وريفها).
٦. لواء الحق (في محافظة حمص وريفها).
٧. حركة الفجر الإسلامية (في محافظة حلب وريفها).
٨. كتيبة مصعب بن عمير (في ريف حلب).
٩. جماعة الطليعة الإسلامية (في ريف إدلب).
١٠. كتائب أنصار الشام (في محافظة اللاذقية وريفها).
١١. جيش التوحيد (في محافظة دير الزور وريفها).

وانظر: يوتيوب، الإعلان عن تشكيل الجبهة الإسلامية السورية، ويلاحظ قول المتحدث في التعريف عن الجبهة: "نحن الطيف الأوسع من الكتائب الإسلامية العاملة" ما يوضح بدايات الانفصال عن مفهوم الجيش الحر.
https://www.youtube.com/watch?v=qVwEsEjJeuo

ولقراءة ميثاق الجبهة الإسلامية السورية، الرابط:
https://docs.google.com/document/d/1fACS9tltlmZDmomlB1ZtiJLZaAckWOT0yhtRwoskgIE/edit

(١٧) أعلن تشكيل "كتائب أحرار الشام أواخر ٢٠١١م، لكن الكتائب كانت موجودة في وقت مبكر قبل ذلك حسب القائد العام للحركة حسان عبود. انظر: الجزيرة نت، حسان عبود... سلسلة رموز المعارضة المسلحة ج١، ٢٠١٣/٦/١١م. وكذلك: يوتيوب، هل أتاك حديث الكتائب.

(١٨) التشكيلات الأربعة هي: كتائب أحرار الشام، حركة الطليعة الإسلامية، حركة الفجر الإسلامية، كتائب الإيمان. و لم تلبث حركة الفجر أن خرجت من الحركة لتنضم لاحقًا إلى جبهة أنصار الدين. انظر: إعلان حركة أحرار الشام الإسلامية.

وكسرد سريع وموجز للتحالفات التي أضحت التمثيلات الأكثر تداولاً للثورة السورية المسلحة، وللجدل الأيديولوجي بين الإسلاميين والمهتمين بالشأن الجهادي؛ فإنه بعد قرابة العام قرر الطيف الواسع من فصائل هذين التشكيلين الأخيرين أن يندمج في الجبهة الإسلامية في ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١٣م[١٩]، مع التحدي الذي فرضه إعلان "دولة الإسلام في العراق والشام" في ٩ نيسان ٢٠١٣م وسعيًا لمنع تسرب مقاتلي الفصائل هذه نحوه، وتلا قيام الجبهة الإسلامية إعلان أكثر من تحالف بين فصائل الجيش الحر على مستوى "جبهة" مثل: الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام (القريب من المدرسة الشامية وجماعة زيد ومدرسة الإخوان مع وجود تشكيل "تحريري" ضمنه هو ألوية الحبيب المصطفى)، فيلق الشام (القريب من مدرسة وجماعة الإخوان، وورث الفيلق فصائل هيئة حماية المدنيين)، جيش المجاهدين (إسلام مجتمعي غير محسوب على أيديولوجيات)، حركة حزم (والتي رثت ألوية الفاروق في ريف إدلب وريف حماة)، جبهة ثوار سوريا والتي ورثت فصائل "ألوية أحفاد الرسول" فساعدها على انتشار قطري عبر الكتائب التي تبنت اسمها وإن كانت نواتها الصلبة جبهوية في ريف إدلب قبل أن تنتهي تقريبًا في صراعها مع النصرة أواخر ٢٠١٤م[٢٠]، وصولاً إلى إعلان الجبهة الشامية في ٢٥ كانون الأول ٢٠١٤م[٢١].

وباستثناء حركة حزم وجبهة ثوار سوريا، فقد اعتُبرت التشكيلات الأخرى أمثلة على "فصائل إسلامية" كما قدّمت نفسها، أو كما تداولها الوسط الإسلامي والجهادي على اختلاف ما بينها في انتمائها أو تمثيلها لأيديولوجيا سياسية أو جهادية إسلامية مكتملة، حيث لاحظنا أن النسبة الأكبر من هذه التحالفات هي من شباب "الجيش الحر" أنفسهم والذين اندمجوا ضمن واجهة إعلامية أو قيادية تكلمت باسم هذا المشروع دون أن يؤثر كثيرًا ذلك على بنية القواعد نفسها، مع التأكيد على الاستخدام الإجرائي للمصطلح هنا لغايات بحثية بعيدًا عن منح أحكام قيمة معيارية، ودون التعرض لنقاش مدى إسلامية وجهادية كل منها مقارنة بحزم وجبهة ثوار سوريا أو فصائل الجيش الحر الأخرى، ودون ضرورة التوضيح أن الكاتب يعتبر الفصائل المحلية –غير المؤدلجة– كانت هي لا غيرها الأكثر إسلامية.

يمكن الحديث هنا عن "جغرافيا الأيديولوجيا"؛ يُلاحظ هنا أن أغلب هذه التشكيلات كان ثقلها وتأسيسها في الشمال السوري، حيث كانت نسبة المهاجرين الأعلى، وحيث كانت فاعلية التصنيفات والجدل الأيديولوجي أعلى (وحيث كان ثقل حركة أحرار الشام التي مثلت الجسر الأهم بين السلفية الجهادية والثورة السورية)، مقارنة بالجنوب السوري الذي لم يشهد هذا الجدل وانحصرت معادلة القوة حتى الآن بين "الجيش الحر" الذي تمثله الجبهة الجنوبية وهي ذات العدد والنفوذ الطاغي على الأرض، والسلفية الجهادية التي تمثلها جبهة النصرة وحركة المثنى الأصغر منها، بينما ما زالت امتدادات الفصائل

---

(١٩) لقراءة ميثاق الجبهة الإسلامية (مشروع أمة)، الرابط:
https://docs.google.com/viewerng/viewer?url=zamanalwsl.net/uploads/jabha+aslmic.pdf

(٢٠) للتفصيل: أحمد أبازيد، "ما بعد الجبهة الإسلامية: هزات ارتدادية لزلزال لم يكتمل"، زمان الوصل، ٢٠١٤/٢/٢٠، انظر:
https://zamanalwsl.net/news/46778.html

(٢١) وضمت في بدايتها: الجبهة الإسلامية في حلب (وكانت تجمع لواء التوحيد والأحرار وبقيت كتائب الأحرار في حلب خارج الجبهة الشامية)، جيش المجاهدين، حركة نور الدين الزنكي، تجمع فاستقم كما أمرت، جبهة الأصالة والتنمية، انظر: يوتيوب، الإعلان عن تشكيل الجبهة الشامية.

"المحلية- الايديولوجية" أقلّ حضورًا وتأثيرًا، ولا تختلف كثيرًا عن الفصائل المعروفة بـــ "الجيش الحر"، ويمكن قول الأمر نفسه عن المنطقة الشرقية قبل استكمال تنظيم داعش سيطرته عليها في ١٤ تموز ٢٠١٤م[٢٢].

أما في دمشق (نتكلم هنا بالأحرى عن ريف دمشق)، حيث جيش الإسلام وقائده الكاريزمي زهران علوش ومقابله الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام، فرغم حضور النقاش الأيديولوجي والانقسام أو التصنيف الإسلامي- الإسلامي؛ فقد حافظت هذه الإشكالات على محليتها و لم يتأقلم تداولها كإشكالات الشمال، وأمكن تجاوز هذا الاستقطاب ضمن "القيادة العسكرية الموحدة للغوطة الشرقية" في ٢٧ آب ٢٠١٤م[٢٣]، كما يُلاحظ قلة العدد الذي انتقل إلى التنظيمات السلفية الجهادية المعولمة مثل جبهة النصرة أو تنظيم داعش مقارنة بمناطق أخرى، ويمكن عزو هذا التماسك الفريد في الغوطة الشرقية، ونضج التشكيلات الإسلامية المحلية، إلى حضور التيارات الدينية والمشايخ الكبير (مقارنة بكل المناطق الأخرى) في الحراك الثوري السلمي والمسلح منذ بدايته، ما شكل استثناء ملحوظًا عن "المتروكية الدينية" التي عانتها المناطق الأخرى[٢٤].

وبالطبع فإن ما في الأعيان لا يكون بهذا الانفصال النظري كما في الأذهان، فلم يكن التوسعان يسيران بشكل منفصل، باعتبارنا نتكلم هنا في سيرورة وحركية تكوين الفصائل والحركات والأحزاب، على مستوى العناصر الحاملين لها، أوحواضنها الشعبية، أو أنصارها المأمولين، فكما تقدم ثمة حركات تتجاوز أي بعد مناطقي أو عشائري في توسعها لصالح أيديولوجيا تعبوية مهيمنة (القاعدة قريبة من هذا النموذج ولكن ليس بشكل كامل)، وثمة بالمقابل حركات تقتصر على بعد مناطقي أو عشائري ما دون أن تمتلك ترسانة خطابية تدفع بها هذاالتنافس الحاصل على المرجعية (فصائل الجيش الحر المحلية الصغيرة مثلاً).

وما بين التنظيمات الايديولوجية البحتة، والتنظيمات المحلية البحتة، كان ثمة تنظيمات بُنيت على المسارين معًا (كجماعات محلية متسقة داخليًّا في منطقتها ويجمع بينها تعبئة عقدية ورسالية جامعة)، ويفترض أنها الأقدر على الاستمرار في ظل صراع أيديولوجي لا محض عسكري، حركة أحرار الشام مثال على هذه التنظيمات إلا أن المشكلة أنها رغم كونها حركة (محلية أيديولوجية) لم تستطع الاستقرار على فكر موحّد، ولا استطاعت بالتالي نشر هذه العقيدة الجامعة بين عناصرها، فتمكنت من التوسع الأفقي في وقت سريع، ولكنها لم تلبث بسبب عدم وضوح منهجها أو عدم وحدته أن أفرزت تيارات متباينة وعناصر كثيرين انشقوا عنها لصالح تنظيمات معادية لها بالمطلق مثل داعش. مافعلته المجموعات السلفية خاصة، أنها ساهمت في أدلجة الثورة، و لم تتركها على إطارها المحلي الجامع، ولكنها بعد ذلك لم تقدم أيديولوجيا جامعة حتى داخلها، فضلاً عن أن تكون جامعة للثوار بالعموم.

---

(٢٢) للتوسع انظر: أحمد أبازيد، "المشهد السوري بعد دير الزور: تحدي الوجود بين الدولة والنصرة والثورة"، ٢٢/٧/٢٠١٤م.
http://fairforum.org/?p=2093

(٢٣) يوتيوب، إعلان القيادة العسكرية الموحدة للغوطة الشرقية.
https://www.youtube.com/watch?v=FJ5fopG8i_w

(٢٤) للتفصيل في المقصود بالمتروكية الدينية، مراجعة: أحمد أبازيد، "ثورة المتروكين"، مصدر سابق.

لقد كان هذا التوسع (الجغرافي والأيديولوجي) هشًّا وغير مكتمل لأنه لم يعبأ ضمن مسار مؤسسي ناظم وموحد، ولا ضمن عقيدة ثورية وجهادية واضحة وحاضنة لاختلافات الفاعلين فيها، فضلاً عن أن تكون لاختلافات "موضوع" مشروعها، بدءًا من حواضنها الثورية والشعبية "السنية" قبل أن تكون للمجتمع (أو المجتمعات) السوري بالعموم.

كيف تعامل الإسلاميون الجدد إذن، الذين تمثلهم هذه الفصائل المحلية التي قدمت نفسها كمشروع إسلامي سياسي لا محض عسكري، مع هذا التحدي؟!

هيمنة الخطاب الأقصى

كان ثمة خواء في الخطاب الإسلامي الثوري إذن، رغم خصوبة البيئة الثورية وحاجتها إلى حاضن رمزي يكفل التحصين والتعبئة العقدية على المدى البعيد، ورغم إمكان تشكيل هذا الخطاب قاعدة توافق ودعم عامة حتى من غير الإسلاميين، في ظل مرحلة كان المطلوب فيها عدم استمرار التشتت والتشظي للحراك الثوري.

أعلن عن جبهة النصرة في ٢٤ كانون الثاني ٢٠١٢م، بعد شهور من تحول الجيش الحر إلى وجه الثورة المسلح والطاغي إعلاميًّا، وكان معروفًا للمتابعين تبعية الجبهة (أيديولوجيا على الأقل) للقاعدة، ولكن لم تعلن الجبهة عن بيعتها للقاعدة إلا في وقت متأخر كمهرب من الانضمام لتنظيم داعش، ولكن فيما قبل ذلك مارست جبهة النصرة بتياراتها المتعددة ضغطًا رمزيًّا على الثورة السورية، باستعمالها قاموسًا خطابيًّا مختلفًا، يتعلق بإسقاط حكم النصيرية (بدلاً من إسقاط نظام الأسد) ومحاربة جيش الكفار والمرتدين (الذي كان جيش النظام السوري)، والتتبع الدقيق لبيانات جبهة النصرة منذ بدايتها يؤكد تزايد حدة الخطاب السلفي الجهادي والتصريح به مع الوقت، وهذا كان وعيًا ذكيًا للتدريج في تهيئة الأرضية المناسبة للخطاب، هذه التهيئة لم تكن جبهة النصرة وفصائل السلفية الجهادية المعولة (سواء من حيث الأهداف أو البنية المعتمدة على العناصر المهاجرين) ليمكنها القيام به وحدها، نتكلم هنا بشكل رئيس إضافة إلى جبهة النصرة عن تنظيم داعش (أعلن في ٩ نيسان ٢٠١٣م) وجبهة أنصار الدين (أعلنت في ٢٧ أيلول ٢٠١٤م)[٢٥]، وهذه الأخيرة كانت بمثابة الخيار الثالث للجهاديين والمهاجرين الذين "اعتزلوا الفتنة" ولا ينوون الانخراط في الصراع ما بين جبهة النصرة وتنظيم داعش.

هنا يأتي دور الجسر الأهمّ ما بين الثورة والسلفية الجهادية، وهي المجموعات المتأثرة بالسلفية الجهادية ولكن بأهداف وبنية محلّية، ويليها ولكن بشكل أخفّ المجموعات السلفية المحلية التي فصلت نفسها عن مسمى الجيش الحر وعلم الثورة السورية عامة، ونحن هنا نتكلم بشكل واضح عن حركة أحرار الشام كنموذج عن الأولى[٢٦]، وعن جيش الإسلام (الذي كان سرية

---

(٢٥) يوتيوب، إعلان جبهة أنصار الدين، انظر:
https://www.youtube.com/watch?v=Fx9uLbm0Nqw

(٢٦) نأخذ حركة أحرار الشام الإسلامية كتجربة توضيحية لغايات البحث، مع وجود أمثلة أخرى أكثر قربًا من السلفية الجهادية وأبعد عن الثورة السورية منها، دون ان يُفهم من الكلام عن الأحرار تحميلهم كل النتائج السلبية لهذا النموذج، ولا أنهم يحتكرون هذا الدور، وقد وضح الكاتب في هذه الورقة ومقالات ودراسات أخرى الدور الإيجابي الذي قام –ويقوم– به الأحرار في الثورة السورية، وإن كان توزيع احكام القيمة أو آراء الكاتب الشخصية ليست ضمن مهمات البحث.

الإسلام ثم لواء الإسلام) كنموذج عن الثانية، وغني عن القول إن هذه الدائرة اتسعت فيما بعد لتشمل فصائل وتحالفات لا تنبني على أيديولوجيا سلفية وجهادية بالضرورة، ولكنها ساهمت في رفد ذات الانفصال أو المساهمة في التهيئة للأرضية "الرمزية" المناسبة لطغيان الخطاب السلفي الجهادي.

لا بد من التنبيه بداية إلى أن ظروف الحرب وتحولاتها السريعة، إضافة إلى حداثة "الأدلجة" في قواعد الثوار والمقاتلين، جعلت من محاولات التصنيف الثابتة مربكة وضعيفة التفسير على المدى البعيد، خاصة أن كثيرًا من التحالفات العسكرية انبنت على جمع "توفيقي" أو حتى تلفيقي لتيارات متباينة، استطاعت بعض هذه التناقضات الاستمرار، ولكن تناقضات أخرى انفجرت على أصحابها، و "سيرورة التشظي" هذه سمة بارزة في الحركات الجهادية عامة، وكان تنظيم الدولة (داعش) هو المحكّ الأبرز لاختبار هذه التناقضات، التي لم تتوقف عند جبهة النصرة فقط، ولا حتى عند فصيل سلفي وجهادي محلّي مثل أحرار الشام، بل امتدّ تأثيرها إلى فصائل محلية غير مؤدلجة بحكم تأثير الخطاب المهيمن والمزايدات التي أصبحت ذات الرأسمال الرمزي الأعلى في الفضاء الخطابي العام[٢٧].

فعند الحديث عن حركة أحرار الشام، لا ينبغي تجاوز وجود تيارات متنوعة ومتباينة داخل الحركة، وتغيّر داخلي عصف بها وغيّر من القناعات السائدة على مستوى القواعد والقيادات، ويمكن قراءة جذور متعددة في الحركة من السلفية الجهادية إلى السلفية الحركية إلى تجربة الطليعة المقاتلة ومدرسة الإخوان.

ورغم التأثر بالسلفية الجهادية في بدايات الحركة وفي مناهجها التدريبية في المعسكرات(التي تمثل مصانع أيديولوجيا حقيقية لشباب غير مؤدلجين بغير الحماسة للجهاد، وفي تلك المصانع وُضعت بذرة انشقاق أعداد كبيرة من هؤلاء الشباب نحو تنظيم داعش أو حيادهم تجاه قتاله أو حتى تركهم الدفاع عن أنفسهم إن قاتلهم)، إلا أنه صعد اتجاه نقدي تجاه السلفية الجهادية أصبح الغالب على الصف الأول من القيادات الذين قضوا بشكل جماعي في ٩ أيلول ٢٠١٤م[٢٨]، وإن كان أكثر من انتشر نقده القاسي تجاه التيار السلفي الجهادي هو "أبو يزن الشامي" الذي وصل به الأمر إلى أن كتب على حسابه في الفيسبوك في لحظة وجدانية شجاعة:

"نعم أنا كنت سلفيًا جهاديًا، وحبست على هذه التهمة في سجون النظام، واليوم استغفر الله وأتوب إليه واعتذر لشعبنا أننا أدخلناكم في معارك دونكيشوتية كنتم في غنى عنها، أعتذر أننا تمايزنا عنكم يومًا، لأنني عندما خرجت من السجن

---

(٢٧) حول مفهوم الرأسمال الرمزي والمجال، انظر:
بيير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة: عبدالسلام بنعبد العالي، الطبعة الثالثة (الدار البيضاء: دار توبيقال، ٢٠٠٧م).
وكذلك:
ستيفان شوفالييه وكريستيان شوفيري، معجم بورديو، ترجمة: د.الزهرة إبراهيم، الطبعة الأولى (دمشق: النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠١٣م)، ص ١٦٢-١٦٧.

(٢٨) أحمد أبازيد، "يوم استشهد الأحرار: قراءة في أبعاد المشهد وتحدياته"، منتدى العلاقات العربية والدولية، ٢٠١٤/٩/١٦م.
http://fairforum.org/?p=2389

الفكري الذي كنت فيه واختلطت بكم وبقلوبكم، قلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق عندما قال: (إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم)، أعتذر منكم أعتذر، وإن شاء الله قابل الأيام خير من ماضيها لثورتنا ولإسلامنا".

كما أن قادة آخرين كانوا مشاركين في هذا التيار الذي تنامى سريعًا قبل الحادثة، مثل: أبو عبد الله الحموي وأبو أيمن الحموي[٢٩] وأبو عبد الملك الشرعي وأبو سارية وغيرهم. إلا أن هذه الصحوة المتأخرة كانت بعد ضربات ميدانية وفكرية مؤثرة على الحركة والثورة السورية عامة.

لقد تقدم أن الحركات المتأثرة بالسلفية الجهادية ولو حافظت على محلية أهدافها وبنيتها، إلا أنها كانت مساهمًا رئيسًا في الثنائيات التي اخترقت الجسد الثوري، بدءًا باللغة (جيش حر وفصائل إسلامية) وليس انتهاء بالشعارات (انتشر اعتبار علم الثورة علمًا للعلمانيين مقارنة بالرايات الإسلامية)، وخارج هذه الثنائيات الصانعة للهوية الأحادية داخليًّا، فقد كان تمايز الحركة عن السلفية الجهادية المعولمة والأكثر تشدّدًا أقلّ تصريحًا عن نفسه، لا بسبب عدم قناعة القادة بنقد التيار، أو أكثرية التيار المتشدد، وإنما تعود المسألة إلى السياسة التعبوية وأيديولوجيا المشروعية التي اتبعتها الحركة في التجنيد والتدريب، والتي لم تخرج عن دائرة "السلفية الجهادية" ورموزها ومصطلحاتها وإشكالاتها، ما جعل القاعدة وتنظيم "دولة العراق" بالذات في المركز من هذه الدائرة التي ستقع فيها حركة تحاول الحفاظ على محليتها ووسطيتها في موقع الطرف الأضعف بالضرورة.

إن الرأسمال الرمزي في المجال السلفي الجهادي (خاصة لدى المؤدلجين حديثًا) أضحى أكثر فأكثر مع قيام تنظيم داعش محسومًا سلفًا لمن يمتلك القدرة الأعلى على تقديم الهوية الأكثر أحادية وإقصائية وتكفيرية. وهذا ما انتبه له قادة الحركة متأخرين لدى موقف العناصر (ونسبة ليست قليلة من القيادات) من تنظيم داعش، فضلاً عن الموقف من قتاله، رغم أن التنظيم استهدف الأحرار بالذات في بياناته وتجاوزاته قبل الحرب الموسعة عليه من قبل فصائل الثورة السورية في بداية ٢٠١٤م، هذا الاستهداف باعتبار أن الأحرار كان الفصيل الثوري الوحيد الذي له موقع معترف به أيضًا ضمن الوسط الجهادي، وبالتالي فهو يهدد احتكارية التنظيم للمشروع والخطاب، ولكن هذا بالذات ما جعل موقف الأحرار أضعف خوفًا من تسرب عناصرهم نحو التنظيم إن أظهروا خطابًا ذا حدّة أقلّ ستعرّف على أنها "تنازل" و"انبطاح" في فضاء خطابي تنبني المشروعية فيه على من يقدم الحلول القصوى والأكثر جذرية، وليس الأكثر شرعية بالضرورة.

فيما عدا اعتداءات التنظيم على الفصائل الثورية قبل الحرب الموسعة التي بدأها جيش المجاهدين ضده (٣ كانون الثاني ٢٠١٤م)؛ فقد اعتدى التنظيم على الأحرار في أكثر من موقع وأكثر من حادثة، ابتداءً من مقتل المسؤول الإغاثي في حركة أحرار الشام الإسلامية "أحمد فهمي نينال" بعد اعتقاله مع وفد إغاثي ماليزي (١٠ أيلول ٢٠١٣م)، ثم حادثة قطع رأس المقاتل في الحركة نفسها محمد فارس المروش أمام العامة في حلب (١٣ تشرين الثاني ٢٠١٣م)، وصولاً إلى أحداث مسكنة

---

(٢٩) للاطلاع على كتيب كان له تأثير مهم داخل الحركة لأبي أيمن الحموي موضوعه نقد تجربة السلفية الجهادية، بعنوان: **أليس منكم رجل رشيد**، الرابط: http://justpaste.it/Abu_Ayman_Hamwi

(٨ كانون الأول ٢٠١٣م)[٣٠]، والتي كانت أول مواجهة مسلحة ما بين التنظيم وكتيبة تابعة للأحرار، وهي كتيبة مصعب بن عمير التي كان قائدها المهندس هاشم الشيخ، والذي أصبح القائد العام لأحرار الشام في أيلول ٢٠١٤م، ولم تحصل هذه الكتيبة إلا على مؤازرة معنوية وإعلامية من الحركة بينما استنفر التنظيم مؤازرات من مناطق متعددة حتى اضطر الأحرار للانسحاب، وسيطر التنظيم على مسكنة في ريف حلب الشرقي، وفي حوادث مسكنة تم اعتقال الطبيب حسين السليمان وتعذيبه حتى الموت (٣١ كانون أول ٢٠١٣م) والتمثيل بجثته، الحادثة التي أخذت ضجة عظيمة ضد التنظيم، وبدأت الحرب الموسعة عليه بعدها بيومين[٣١].

لم يتمكن الأحرار حتى مع بداية الحرب الموسعة على تنظيم بداية ٢٠١٤م من اتخاذ موقف جماعي بقتال التنظيم، ولا حتى اتخاذ موقف واضح يجرده من شرعيته الجهادية، وانسحب مقاتلو الأحرار من أكثر من مدينة تجنّبًا لقتال التنظيم بعد حرب فصائل الثورة عليه، كان أكثر هذه الحوادث مأساوية انسحاب مقاتلي الأحرار من مدينة الرقة في كانون الثاني ٢٠١٤م "اعتزالاً للفتنة" بعد ترك السلاح وأخذ أمان من تنظيم الدولة للمرور من حواجزه، الاتفاق الذي انتهى بمذبحة جماعية نفذها التنظيم بهم، وقتل يومها ما يزيد عن ١٢٠ مقاتلاً من حركة الأحرار دون أن يقاتلوا.

هذا الخوف من البيت الداخلي ومن فهم الحرب على الدولة كحرب على المهاجرين، انتقده حتى بعض "المهاجرين" المقربين من الحركة والذين كانت لهم مواقف نقدية عنيفة ضد تنظيم الدولة، وضد هشاشة موقف الفصائل الإسلامية منه.

هذا الموقع الوسط للحركة بين الثورة والجهاديين، وعدم وضوح مشروع وخطاب موحد ومتماسك للحركة، وتأخير الإعلان عن موقف نقدي جذري من السلفية الجهادية في قضية التكفير والدولة وعولمة الصراع، وهو ما اصطلحنا على تسميته هنا بـــ "سياسية الدين المخبأ"، تكرر لاحقًا مع جبهة النصرة، أو مع التيار المتشدد فيها، الأمر الذي ظهر جليًّا بتوقيع ميثاق الشرف الثوري[٣٢]، والذي أكد منطلقات (تتعلق بمحلية الصراع ومرجعية الشريعة الإسلامية والطموح لبناء دولة حديثة) سبق أن أكدتها بيانات الحركة نفسها سابقًا قبل طغيان الخطاب السلفي الجهادي على الفضاء الثوري، والذي حصل لدى إعلان ميثاق الشرف الثوري، أنه بين الفصائل التي وقعت الميثاق (جيش المجاهدين والاتحاد الإسلامي لأجناد الشام والجبهة الإسلامية وفيلق الشام) كان الأحرار وحدهم من شعروا بالحاجة للدفاع عن موقفهم وتبريره بالسياسة الشرعية، وهم وحدهم من كانوا مقصودين بالهجوم من طرف المناصرين لتنظيم القاعدة وقياداته في سوريا[٣٣]، بينما كانت فصائل الجيش الحر الأخرى الموقعة خارج صراعات الحقل الجهادي الرمزي أو بلغة أخرى خارج دائرة المزايدات هذه وغير معنية بها لا إثباتًا ولا تبريرًا، مثلما كانت هذه الفصائل نفسها يوم القتال مع تنظيم داعش.

---

(٣٠) مقابلات خاصة للكاتب مع مقاتلين من كتيبة مصعب بن عمير، في اعزاز بريف حلب، في فترات متعددة من شباط ٢٠١٥م.

(٣١) للمزيد حول تجاوزات التنظيم بحق الفصائل وانتهاكاته حول المدنيين، انظر تقرير **الشبكة السورية لحقوق الإنسان**، "تنظيم دولة العراق والشام".

(٣٢) ميثاق الشرف الثوري للكتائب المقاتلة، ٢٠١٤/٥/١٧م، انظر:
https://www.youtube.com/watch?v=bbQ4uBuYNvs

(٣٣) أحمد أبازيد، "مسارات الإسلاميين السوريين الصعبة"، منتدى العلاقات العربية والدولية، ٢٠١٤/٥/١٧م.
http://fairforum.org/?p=1882

يمكننا في هذا السياق قراءة ميثاق الجبهة الإسلامية (مشروع أمة)، الذي يبدو مكتوبًا للرد بشكل مسبق على اتهامات ومزايدات تنظيم الدولة والتيار المتشدد من القاعدة، والموجّه نحو الفضاء الجهادي العام، قبل أن يكون نحو الفضاء الثوري أو السوري الذي طمحت الجبهة لتكون الجسد السياسي والعسكري الحامل والممثل لمشروعه، وبمقارنة ميثاق الجبهة الإسلامية الذي يضم الأحرار وفصائل متنوعة ما بين جيش حر غير مؤدلج وسلفية علمية تمثلها جيش الإسلام وغيرها، وما بين بيانات الحركة نفسها فيما قبل ظهور تنظيم الدولة، يمكن دون عناء ملاحظة الطابع المحلي الأكثر ظهورًا في البيانات الأولى، رغم أنها تمثل حركةً نسبةُ السلفيين والجهاديين فيها أعلى من نسبتهم في الجبهة الإسلامية.

وفي الحقيقة فقد كان موقف الفصائل والشخصيات الإسلامية من التنظيم المحكّ الأهم لاختبار تماسك أيديولوجية وبنية الإسلاميين الجدد، ومدى تحصين الحالة الثورية السورية عامة، وهذا ليس موقفًا خاصة بحركة أحرار الشام أو الفصائل السلفية، لأنه حتى ما قبل إعلان الحرب الموسعة على تنظيم داعش، فقد كانت المواقف الحادة والجذرية ضده من قبل المحسوبين على الإسلاميين معدودة ومحدودة وشبه معزولة عن المواقف العامة للإسلاميين مشايخ وفصائل[٣٤].

هذا عدا الحياد السلبي الذي مارسته مجمل الفصائل أمام انتهاكات التنظيم بحق فصائل أخرى، أو نشطاء ثوريين، والذي أوضح هشاشة الشعور بالتضامن الثوري أو الواجب الحقوقي والشرعي، في وقت كان التنظيم فيه لا يزيد عن قوة أي فصيل متوسط العدد، خوفًا من الاتهامات ذات الصوت الأعلى في فضاء هيمن عليه الخطاب الأقصى، بدءًا من "طعن المجاهدين" وانتهاء "بالصحوات المرتدّين"[٣٥].

لقد مثلت حركة أحرار الشام بمراحل تطورها وتجديد رؤيتها ومراجعاتها تجربة جهادية محلية ومتجذرة ضمن المجتمع السوري، وبأهداف سياسية واضحة، وقناعة بالمشروع الإسلامي الحاضن للاختلاف والتنوع، وتجديدًا -نظريا وحركيا- لمفهوم الجهاد بمعناه السلفي خاصة، وكانت حجةَ الثوار السوريين أمام اتهامات التيار السلفي الجهادي المعولم لتحالفاتهم وأهدافهم، كما أنها تضمنت تيارات متباينة الموقف من نقد التيار السلفي الجهادي وقتال داعش، ولم تخلُ بعض فروعها ورموزها من تشدد وإقصائية نظرية أو تجاوزات وأخطاء عملية، إلا أن الموقف الرسمي والعام في النهاية كان المسار التجديدي والثوري وتفضيل الانتماء إلى "الأمة" على التقوقع ضمن "المنهج"[٣٦].

---

(٣٤) وأحد هؤلاء الذين كان لهم موقف جذري مبكر من التنظيم كاتب هذه الورقة نفسه، وهذا التنويه ليس لغايات الفخر الشخصي بقدر ما هو لتوضيح أن هذه شهادة شخصية على هذه المرحلة التاريخية ومواقف الفصائل الإسلامية المعلنة فيها قبل أن تكون استقراء لاحقًا بأثر رجعي، ولا بد من تنويه آخر وهو أنه ضمن النقاشات الخاصة فقد كانت مواقف قادة الفصائل الثورية والإسلامية عامة (وأولها الأحرار) ضد التنظيم ومشروعه أكثر جذرية بكثير مما هو معلن وقتها.

(٣٥) رغم الاعتداءات الكثيرة والاعتقالات التي طالت عشرات النشطاء والإعلاميين في المناطق المحررة من قبل تنظيم (داعش) قبل الحرب الموسعة عليه بداية العام، إلا أن الفصائل الثورية لم تتبن حماية الإعلاميين أو ردع التنظيم عن اعتقالهم، رغم أن الفرض النظري يشير إلى أن هذه الفصائل وهؤلاء النشطاء ينتمون إلى تصنيف واحد بالنسبة للثورة أو التنظيم، وكان هناك موقف يتيم لكتيبة (أبو أيوب الأنصاري) والتي انضمت إلى جيش المجاهدين فور تشكله، تبنت حماية النشطاء الإعلاميين وعرضت مقرها لإقامتهم فيه، وهذا لا ينفي أن هذه الانتهاكات بحق الثوار كانت السبب الأهم في التجييش ضد التنظيم، وتبني الفئة الأوسع من المقاتلين للحرب عليه، لمشاهدة البيان، انظر:
كتيبة أبو أيوب الأنصاري تتبنى حماية ناشطي حلب، أورينت نيوز، ٢٠١٣/١١/٢٩، على الرابط:
https://www.orient-news.net/index.php?page=news_show&id=6431

(٣٦) أحمد أبازيد، يوم استشهد الأحرار، مصدر سابق.

ولا يعني نقد دور هذا النموذج من الفصائل المقاتلة (التي جمعت البعد الثوري والجهادي في خطابها، كما جمعت البعد المحلي والأيديولوجي في بنيتها)، في المساهمة بتهيئة أرضية خصبة للسلفية الجهادية وإشكالاتها ومزايداتها، أن دورها كان سلبيًّا على طول الخط، فلا بد من توضيح إيجابية وجود بديل محلّي ومعتدل للشباب الباحثين عن حاضن سلفي وجهادي، بل إن النقد يبدأ أساسًا من أن هذه الإيجابية لم تكتمل بحكم السكوت عن تبيين التمايز الواضح عن "البعد المعولم" للتيار أو "البعد الوحشي" للتنظيم، وأيضًا بعدم عملهم على توفير حاضن بديل (عن القاعدة وتنظيم داعش) للمقاتلين غير السوريين الذين قاتل الآلافُ منهم الثورةَ (بحكم أيديولوجيا التكفير وخطاب الردّة) بشراسة توازي شراسة النظام والميليشيات الشيعية ضدها، وكان أثرهم أكثر كارثية في جبهات تحررت من النظام مبكّرًا.

وفي هذا السياق نفسه، سياق التحولات نتيجة هيمنة الخطاب الأقصى وخضوع "الإسلاميين الجدد" لسلطته الرمزية؛ نقرأ الضجة التي ثارت على تويتر (الفضاء الجهادي الافتراضي الرسمي بعد عصر المنتديات) حول تصريحات قديمة مصورة لأحمد عيسى الشيخ، قائد ألوية صقور الشام وأحد مؤسسي جبهة تحرير سوريا الإسلامية ثم الجبهة الإسلامية، والتي تكلم فيها عن أن مفهوم الدولة الإسلامية لا يتعارض مع الدولة المدنية والمواطنة والانتخابات[٣٧]، ما اضطر "الشيخ" نفسه أن يعلن توبته عنها، وفصّل نموذجه الأكثر "سلفية" للدولة.

هذا لا يعني أن مواقف النموذج الثاني (السلفية العلمية المحلية) الذي مثله جيش الإسلام، قدم مفهومًا أكثر مدنية أو حداثة للدولة، هذا فيما لو كان هذا مهمًّا وقت الحرب، ولكن الفارق المهمّ هنا، أن الجيش قام على سلطة كاريزمية لقائده وعلى قيادة مركزية صلبة وعلى حاضنة شعبية متماسكة حوله وتتمركز في دوما والغوطة الشرقية (وإن حاول التوسع في مدن أخرى)، والبعد المحلّي هنا أكثر حضورًا من الأحرار (حيث كان البعد الايديولوجي أقوى وحيث اللامركزية القيادية)، وكذلك على أيديولوجيا واضحة تجاه الخصوم منذ البداية، وكانت تصريحات زهران علوش ومفتي الجيش (أبو عبدالرحمن كعكة) ضد جبهة النصرة[٣٨] وضد تنظيم الدولة سابقة على مجمل الفصائل "الإسلامية" الأخرى، هذا إضافة إلى بعد مركز الجيش عن جبهة الشمال المغرقة بالأيديولوجيا والإقليم[٣٩].

---

(٣٧) يوتيوب، ويتكلم أحمد عيسى الشيخ في هذا اللقاء عن نشأة وتوسع صقور الشام وتصوره السياسي.
https://www.youtube.com/watch?v=r4u6EQkK5bQ

(٣٨) انتشرت في وقت مبكر "مناظرة" مسربة لمفتي جيش الإسلام (أبو عبد الرحمن كعكة) التي ينتقد فيها جبهة النصرة بأحكام فقهية شرعية، تعتبرهم من "الخوارج" المسمى الذي أطلق لاحقًا على تنظيم الدولة (داعش) وأخذ هذا التسجيل المسرب ضجة واسعة في وقته أواخر تموز ٢٠١٣م، للاطلاع على هذه المناظرة المرفوعة على أجزاء في اليوتيوب، انظر على الترتيب:
https://www.youtube.com/watch?v=jyOWOsNVFJo
https://www.youtube.com/watch?v=LQdRT7EygG0
https://www.youtube.com/watch?v=Hl5IX3k2ZzY
https://www.youtube.com/watch?v=B-z99VGM2oA
https://www.youtube.com/watch?v=KfSpcBCnQZs

(٣٩) مع وجود كتائب تابعة للجيش في حلب وإدلب والساحل ولكن يبقى المركز الأوحد هو الغوطة الشرقية، ويُلاحظ أنه حتى بالنسبة لهذه الكتائب البعيدة عن المركز، إلا أن التزامها بخطاب وايديولوجيا جيش الإسلام ملاحظ، ما يعطي دليلاً آخر على قوة سياسة الدمج والاستدخال الصلب في المنظومة ومركزية القيادة وكاريزما القائد الحاضرة في بنية الجيش وتوسعه، وهو ما يجعل الجيش من حيث البنية والتماسك هو الأشبه بالبنية المتماسكة لتنظيم داعش أو جبهة النصرة، مع افتراقه الواضح عنهم أيديولوجيًّا وثوريًّا.

ونتيجة هذ العوامل؛ لم يشهد الجيش أي انقسام أو انشقاق أو اعتزال ملحوظ (كما حصل في الفصائل الأخرى) لدى قرار قتال تنظيم داعش في الغوطة، بل إن المنشقين عن الجيش للانضمام إلى تنظيم داعش كانوا أقلّ حتى ممن انتقلوا من فصائل الجيش الحر غير المؤدلجة إلى التنظيم.

وإن كان لا بد من الإقرار أن الجيش نفسه ساهم أيضًا في الانقسام والثنائيات نفسها التي عزلت "الإسلاميين" عن المحيط الثوري غير المؤدلج، من الانفصال في التصريحات عن مسمى الجيش الحر، أو في الشعارات عن علم الثورة، وإن كان انضمام الجيش إلى مجلس قيادة الثورة يفترض أن تجاوز صريح لهذه الثنائيات.

خاتمـــــــة

منذ قضاء حافظ الأسد على ثورة الإخوان في ثمانينيات القرن السابق؛ اختفى وجود تيار إسلامي حركي أو سياسي في سوريا، والتزمت المؤسسة الدينية بحدود المجال المرسومة من قبل السلطة، والتي لا تتدخل في السياسة إلا كمباركة روحية للسلطة الحاكمة وكآلية إخضاع اجتماعي خاضعة بدورها للسلطة.

ولما قامت الثورة السورية كانتفاضة مجتمعات محلية ضد السلطة يحضر فيها الدين كسند هوياتي وروحاني لا كأيديولوجيا سياسية، فشلت تمثيلات الدين التقليدية سواء داخل سوريا (المدرسة الشامية) أو خارجها (الإخوان المسلمين) بأن تكون موجّهًا أو فاعلاً رئيسًا أو تمثيلاً دينيًّا وفكريا للحراك الثوري، ولم تنجح في تقديم خطاب إسلامي ثوري يلبي متطلبات الحاجة لحاضن رمزي وتعبوي في ظل دخول الخطاب السلفي الجهادي والحاجة لخطاب تحصين وتعبئة ضد قمع النظام الوحشي وأقلمة وأدلجة وتطييف وتمديد أمد الصراع.

مع توسع الثورة المسلحة ميدانيًا وأيديولوجيًا؛ ظهرت فصائل انفصلت عن الطابع الشعبي للصراع وذات منحى سلفي وجهادي، فضلاً عن الفصائل السلفية الجهادية، وتزايد الطلب على الأيديولوجيا والخطابات الأكثر تصلّبًا وعولمة وإقصائية، ما تتوّج بظهور تنظيم داعش، وهيمنته لا على مناطق شاسعة من أراضي سيطرة الثوار فحسب، وإنما على سوق الخطابات والمزايدات التي أثرت على شعبية وشرعية الفصائل الأخرى لدى عدد كبير من العناصر الذين خضعوا لهيمنة الخطاب الأقصى، ولم يقدم هؤلاء الإسلاميون الجدد – الذين مثلتهم الفصائل التي حاولت تقديم نفسها كصاحبة مشروع سياسي وفكري لا محض عسكري أو شعبي – موقفًا حاسمًا وجذريًا من تنظيم داعش لا نظريًّا ولا عمليًّا، خوفًا من ظهور هذا الموقف كـــ "تنازل" و شرعية أقل في نظر عناصرهم، وبسبب عدم تلبيتهم للشرط الأول المطلوب للتوسع والظهور كنخب سياسية وفكرية لا كمحض حالة شعبية حاولوا التعالي عليها وفكّكوها، وهو امتلاك خطاب وأيديولوجيا متماسكة ومتمايزة قادرة على المنافسة وتشكيل حاضن لاختلافات الثوار والإسلاميين لتمثيلهم كمشروع وهوية.

ساهمت سياسة الدين المخبأ هذه بشكل كبير (مع عوامل أخرى لا شك) إلى خسارة الثورة السورية القسم الأكبر من المناطق التي سيطر عليها الثوار المحليون قبل دخول المزايدات والتقسيمات والثنائيات "السلفية الجهادية" عليها، وإلى خسارة قسم كبير لا من الحواضن الشعبية فقط وإنما من المقاتلين والفاعلين في الحراك الثوري نفسه، إما قتلاً أو إعاقةً أو انشقاقًا أو انسحابًا لاعتزال "الفتنة" أو للفشل في إدارة الصراع وعدم توفير خطاب ومشروع إسلامي ثوري مركزي يحقق التجانس للمجال الثوري العام وحاضن قادر على التعبئة في مقابل مشاريع الدولة والإمارة والمصالحة والانفصال والاحتلال التي تقتسم البحر الكبير الذي كانته الثورة السورية في أوج عنفوانها وشعبيتها الطاغية.

وفي انتظار الجميع نضج هذا الخطاب والمشروع الذي يدمج البعد الثوري والإسلامي والوطني وينقذ الثورة السورية من التعدّد المهْلِك، يبدو أن خصوم هذه الثورة وحدهم من لا ينتظرون.